

## توظيف الأيديولوجيا في إطار بناء الدولة الصهيونية

## EMPLOYING IDEOLOGY IN THE FRAMEWORK OF BUILDING THE ZIONIST STATE

عقل صلاح<sup>1</sup>، رائد أبو بدوية<sup>2</sup><sup>1</sup> المجلس التشريعي (فلسطين)، salah.nablus@yahoo.com<sup>2</sup> الجامعة العربية الأمريكية (فلسطين)، r\_o\_lawyer@hotmail.com

تاريخ النشر: مارس/2023

تاريخ القبول: 2023/03/02

تاريخ الإرسال: 2022/05/31

## المخلص:

هدفت الدراسة إلى محاولة البحث في دور الحركة الصهيونية وطبيعة العوامل التي ساهمت في بناء الكيان الإسرائيلي في فلسطين، بعد هدم البلدات والمدن الفلسطينية وقتل وتهجير جزء كبير من المواطنين الفلسطينيين، وإحلال اليهود القادمين من جميع دول العالم بدلاً منهم. لقد اعتمدت الحركة الصهيونية على المرجعيات الدينية، التي تقوم على الأخذ بالكتب الإلهية كمصدر لها في إدارة الصراع، حيث نجحت الصهيونية في توظيف الدين كأداة سياسية في تقديم ذاتها كمرحلة تاريخية مشتقة من إرادة إلهية لتحقيق حلم إقامة الكيان الإسرائيلي، وقد تحقق هذا الحلم بفضل الدعم اللامحدود من قبل الولايات المتحدة الأمريكية للحركة الصهيونية، ومن ثم تبنيها لدولة الكيان الإسرائيلي. كما تطرقت الدراسة إلى النصوص اليهودية المقدسة التي تناولت أرض الميعاد وشعب الله المختار، وإلى الفكر الأيديولوجي الذي قامت على أساسه الحركة الصهيونية، والدور الحقيقي الذي لعبته في الحياة السياسية. فقد نجحت الحركة الصهيونية في توظيف أفكارها، بما فيها العلاقات الدولية، ومازالت تمتلك القوة المؤثرة في حشد التأييد الدولي؛ على الرغم من ممارساتها الإرهابية بحق الشعب الفلسطيني.

**الكلمات المفتاحية:** الحركة الصهيونية، الدولة، الأيديولوجيا، الصهيونية، فلسطين، الدعم الأمريكي.

**Abstract:**

This study aimed to investigate the role of the Zionist movement and the factors that played a role in building the Israeli entity in Palestine. After demolishing Palestinian towns and cities, killing and displacing a large part of the Palestinian citizens, and replacing them with Jews from all over the world. The Zionist movement relied on religion as its source in managing the conflict, Where Zionism succeeded in employing religion as a political tool, presenting itself as a historical stage derived from a divine will to achieve the dream of establishing the Israeli entity, this dream was realized as a result of the unlimited support by the United States of America to the Zionist movement, and then its adoption of the state of the Israeli entity. The study also touched on the sacred Jewish texts that dealt with the Promised Land and the Chosen People of God, the ideological thought on which the Zionist movement was founded, and the real role that Zionism played in political life, the Zionist movement has succeeded in employing its ideas, including international relations, and it still possesses the influential force in mobilizing international support; despite its terrorist practices against the Palestinian people.

**Key words:** State, Ideology, Zionism, Palestine, American Support.

**مقدمة:**

جاهرت الصهيونية بارتباطها بالحركة الكولنيالية العالمية التي كانت تبحث عن موطن قدم جديد؛ لتعزيز منافعها الاقتصادية والسياسية. ولم يكن في بال هذه الحركة العامل الديني كعنصر مهم في مهمتها الاستعمارية، إلا بما يتفق مع مصالحها، فجرى استخدام الدين كعامل مساعد، وهكذا كان حال الصهيونية التي كانت بحاجة للدين اليهودي كعامل محفز؛ لحشد اليهود المنتشرين في جميع أنحاء العالم وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين.

فقد أسهمت الأفكار المغلقة المتمسكة بالتراث اليهودي القديم، في بلورة ما يسمى بالشرعية اليهودية التاريخية، التي مثلت مصدر الإلهام للفكر الصهيوني الديني والسياسي. حيث أثرت العديد من العوامل على تعميق دور الدين وتأثيراته على التوجهات الفكرية للتجمعات اليهودية، وللحركة الصهيونية، واشتملت هذه العوامل على الجذور الدينية والأفكار اليهودية، بما فيها أسفار العهد القديم والتلمود، وآراء المفكرين اليهود، إلى جانب تأثيرات البيئة الأوروبية وتصاعد القوميات، ومعاداة السامية وفشل الاندماج، وتفاقم المسألة الشرقية والاستعمار الأوروبي، الأمر الذي ترتب عليه ظهور تيارات فكرية يهودية متعددة، وتصاعد صراع الأيديولوجيا والعقيدة قبل قيام الدولة.

لذلك تهدف هذه الدراسة إلى تناول الحركة الصهيونية ودورها في هجرة المستوطنين إلى فلسطين، ويمكن صياغة السؤال الرئيس لمشكلة الدراسة في التالي: ما العوامل التي اعتمدت عليها الحركة الصهيونية في بناء وإقامة كيانها الغاصب في فلسطين؟، وينبثق عن السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

- هل نجحت الحركة الصهيونية في تحقيق الأهداف التي انبثقت من أجلها؟
- ماهي الوسائل التي استندت إليها الحركة الصهيونية في تحقيق أهدافها في احتلال فلسطين؟
- ما أهمية الأيديولوجيا الصهيونية في بناء دولة إسرائيل؟
- هل نجحت الحركة الصهيونية بتنفيذ مشروعها بتجميع اليهود في فلسطين للسيطرة على فلسطين التاريخية وإقامة الدولة الإسرائيلية على أرض فلسطين؟

**منهج الدراسة:** للإجابة عن الإشكالية أعلاه، اعتمدنا المنهج التحليلي والمنهج التاريخي لأن الظاهرة المرصودة تعالج مراحل تطور الحركة الصهيونية والأسباب التي تقف وراء قدرتها على تحقيق أهدافها في بناء وفرض الحياة السياسية الصهيونية على أرض فلسطين، وتناول البعد الأيديولوجي للحركة الصهيونية في إدارة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وذلك منذ قيام دولة الصهيونية وحتى إعداد هذه الدراسة، وتحليل مواقف الحركة الصهيونية من الصراع الصهيوني- الفلسطيني وكيف استطاعت تحقيق أجدانها وبرامجها السياسية.

**أهمية الدراسة:** تتجلى أهمية هذه الدراسة في تبيان مدى تعاضد قوة الحركة الصهيونية وطبيعة العوامل التي ساهمت في ذلك، بالإضافة إلى تناول مدى تأثير دورها في صراعها مع الفلسطينيين، ومستقبل هذا الصراع. لا سيما أن الرؤى الدولية المعتدلة التي دفعت نحو حل سياسي لهذا الصراع، قد باءت جهودها بالفشل، وكيف استطاعت الحركة الصهيونية الاعتماد على المرجعيات الدينية التي تقوم على الأخذ بالتوراة أو العهد القديم كمصدر لها في إدارة الصراع. ويتوقع أن تمثل هذه الدراسة إضافة نوعية للباحثين في هذا المجال.

### أولاً: التوراة اليهودية وأرض الميعاد

لقد شكلت التوراة والتلمود المصدر الأساسي للمنطلقات الفكرية والسياسية لليهود على مر العصور، وكان لهما جل الأثر في تكوين الوعي الجمعي اليهودي، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة مع الآخر، والاعتقاد ببقاء العرق اليهودي وتفوقه النوعي على الأغيار أو الغوئيم. لقد تم خلق ذلك الجوهر وتغذيته وتوارثه منذ البدايات، فهو يعطي اليهود عن غيرهم صفة الاستقلالية والتجانس والتفوق، ولذلك يعزي بعض المفكرين اليهود قيام دولة إسرائيل إلى اقتران التقاليد اليهودية مع الرغبة الشديدة في العودة إلى صهيون، وأن اسم صهيون الاسم العبري القديم للجبال المقدسة في القدس، يعبر عن وطن إسرائيل<sup>1</sup>.

تتضمن التوراة اليهودية تسعة وثلاثون سفرًا تروي تاريخ اليهودية، بدءًا من سفر التكوين وانتهاءً بسفر الملاخي، حيث استمرت عملية كتابة هذه الأسفار مدة تروى ألف عام. وهذه الأسفار معروفة باختصار الـ "تاناخ"، حيث يرمز الحرف الأول إلى الأسفار الخمسة الأولى التي تعرف بأسفار موسى، وهي سفر التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. أما الحرف الثاني فنيئيم، تروي أسفار يشوع وصموئيل وعزرا وأيوب وأرميا.. إلخ. والحرف الثالث كتوفيم، وهي أسفار الابتهاالات التي اتبعها الحاخامات في أسفار المزامير والابتهاال والانشاد... إلخ.

تمثل التوراة دستور الشعب اليهودي والسجل التاريخي للأصول اليهودية، والوثيقة القانونية الأساسية التي تنتقل تاريخياً من جيل يهودي إلى آخر، كما أنها توفر الأساس الذي تقوم عليه علاقة اليهود بالله، وكذلك تفاعلاتهم كمجموعة ثقافية اجتماعية سياسية. وتتكون التوراة من خمسة كتب مقدسة، تحتوي على تاريخ علاقة الله مع إسرائيل، إلى جانب الوصايا ميثاقية التي تشكل الأساس القانوني الإلهي لكل ما هو يهودي، وتحتوي التوراة مجموعتين أخريين، هما المرسلات نفثيم والكتابات كتوفيم<sup>2</sup>. وبالنظر إلى نصوص التوراة، فقد ضمت الكثير من أسفار العهد القديم، ما يشير إلى أن اليهود هم سلالة الأنبياء النقية وشعب الله المختار، وأن الله تعاقد مع آبائهم على منحهم الأرض، بعد طرد سكانها، وتعرف هذه الأرض على أنها فلسطين "يورشاليم"، وتمتد أحياناً من النيل إلى الفرات. وقد وردت تلك الوعود في أسفار التكوين، واللاويين، ويوشع، وصموئيل الثاني، والتثنية، والمزامير، وبيدأ الوعد الإلهي في سفر التكوين حسب الميثاق الذي تم بين الرب وإبراهيم عليه السلام، "النسلك أعطي هذه

الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات<sup>3</sup>، و"أقيم عهدي بيني وبينك إبراهيم وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان، ملكاً أبدياً وأكون إلههم"، وكذلك قال الرب: "أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم نسلك وتكون بركة وأبارك مباركك وألعن لاعنيك وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض". وفي سفر التثنية، "هو ذا للرب إلهك السموات وسماء السماوات والأرض وكل ما فيها، ولكن الرب التصق بأبائك ليحمهم، فاختر من بعدهم نسلهم الذي هو أنتم فوق جميع الشعوب كما في هذا اليوم"<sup>4</sup>.

إضافة إلى التوراة، استندت الحركة الصهيونية إلى التلمود؛ من أجل حث يهود العالم، وتأجيج مشاعرهم الدينية في العودة إلى المملكة اليهودية، مستندة في ذلك إلى تفسيرات الكهنة والحاخامات وكتاباتهم وشروحاتهم، والأقوال الربانية، التي تجعل معلمي التلمود في مصاف الآلهة<sup>5</sup>. والتلمود عبارة عن الجمع بين متن جوهرى هو المشناة أو التقيح، والتحليل والتذييل اللاحق، أي الجمارا، وهو مرتب بحسب محتوياته وفق مباحث ومقالات، ويعد الشريعة الشفهية لليهود، وله أكبر الأثر على العقيدة والفكر اليهوديين، وكذلك في أحكام الهلاخاة والممارسات الدينية<sup>6</sup>. ويحتل التلمود مكانة مهمة في قلب الديانة اليهودية؛ لكونه يتضمن مجموعة من الشرائع والقواعد والوصايا، تتضمن شروحا وتفسيرات وتعاليم وروايات منقولة، دونها الحاخامون في الفترة ما بين القرنين الثاني والخامس، وجرى فيما بعد إضافة شروحات عليه سميت "بالمدراشي"، ويشار إليه على أنه قانون واسع في القواعد الدينية الحقوقية للحكمة الحياتية والمذهب الديني، حيث أصبح بمنزلة الشريعة المكتوبة بعد خراب الهيكل الثاني سنة 70، على يد المعلمين المعروفين باسم التنايم، ولليهود تلمودان، البابلي واليروشلمى، ويعتبر البابلي أكثر اعتماداً وتداولاً في الحياة اليهودية<sup>7</sup>.

لقد عمد رجال الدين اليهود عند إعادة كتابة أسفار العهد القديم، وتأليف كتاب التلمود وغيره من الكتب المقدسة، إلى تدوين ما يشير إلى الهدف الرئيس، وهو وعد الرب يهوه بالأرض المقدسة أرض إسرائيل، أرض كنعان<sup>8</sup>. وقد تضمنت معظم أسفار التوراة وكذلك التلمود، إشارات متكررة لصهيون والعودة والعقاب بالنفي من الأرض المقدسة.

### ثانياً: دور القادة والحاخامات الصهيونية في تسهيل هجرة يهود أوروبا لفلسطين

لقد أدت آراء بعض المفكرين اليهود، الذين استندوا إلى روايات العهد القديم، إلى خلق فكرة وطن قومي لليهود، الجذور الأولى للفكرة الصهيونية، أي قبل أن يتبناها هرتزل. وتقوم أفكار هؤلاء، على أن اليهود كل واحد مترابط، فهم شعب وتاريخ وأرض وحضارة وتمثيل للرب. ويعد الحاخام موشيه بن نحمان، أول من أضاف سمة القدسية على أرض إسرائيل - فلسطين -، وعدها مركز العالم، وهي المكان المناسب والوحيد لتأدية الوصايا الدينية التوراتية، والاستيطان فيها واجب ديني، وهذه الفريضة عند بن نحمان تعادل كل فرائض التوراة مجتمعة<sup>9</sup>. أما الحاخام يهودا القلعي، فقد عدت أعماله البداية الحقيقية للصهيونية

الدينية، حيث نشر عددًا من الكتب منها اسمعي يا إسرائيل، وكتاب سلام يا قدس، ومقالة الخلاص الثالث، وقد حثت جميعها على عودة اليهود إلى أرض إسرائيل، دون انتظار عودة المسيح، ودعا كذلك إلى تأسيس صندوق قومي لشراء الأرض، وتوفير قرض قومي لليهود، يساعد في شراء الأراضي في فلسطين، وقد هاجر إلى فلسطين وتوفي فيها عام ١٨٧٨<sup>10</sup>. وهكذا فعل الحاخام زيفي هيرش كاليشر، الذي نشر كتاب البحث عن صهيون سنة ١٨٥٢، وهو أول كتاب يصدر في شرق أوروبا، يتحدث عن الاستيطان الزراعي اليهودي في فلسطين، وأن بداية الخلاص لن تتحقق على يد المسيح المنتظر، وإنما عن طريق الذهاب إلى فلسطين، بهدف الاستيطان وشراء الأراضي. وقد وضع كاليشر مخططاً لتطبيق أفكاره، يقوم على تعزيز رغبة الأغنياء اليهود في تأسيس جمعية استعمار فلسطين وتمويلها التي تقوم على شراء الأراضي، وإنشاء مدارس زراعية، وحرس من الشباب، وتهجير اليهود من كل العالم إليها<sup>11</sup>.

يعتبر الحاخام أبراهام كوك، أحد أهم الفلاسفة والمفكرين اليهود، إذ تبلورت بسبب أفكاره، فلسفة صهيونية دينية شاملة، وتقوم فلسفته على ثلاثة مبادئ هي، إضفاء سمة دينية حقيقية على مركزية أرض إسرائيل في الحياة اليهودية، وتنمية الإدراك الحسي للعلاقة بين الدين اليهودي ونشاط الصهيونية العالمية، وإعطاء أهمية عالمية للنهضة اليهودية من خلال نظام الفلسفة الدينية<sup>12</sup>. وقد أسس كوك مدرسة راف الدينية سنة ١٩٤٢، التي تعد أول مدرسة صهيونية دينية في فلسطين، تخرج منها زعماء غوش إيمونيم، وقد شن هجومًا على التقاليد الدينية، التي تسمح بأن يعيش اليهود في الشتات، وعد التعاليم اليهودية مرتبطة بأرض إسرائيل، وأن آمال العودة هي التي حافظت على اليهودية<sup>13</sup>.

ولا تقل أفكار موسى هس، عن أفكار كوك من حيث الأهمية، حيث يعد أحد أهم مفكري الصهيونية على الإطلاق، جاءت دعوته الرئيسية في كتاب روما وأورشليم، ومؤداها أن سمة الصهيونية السياسية، لا تعرف اليهودية على أنها دين، بل قومية يهودية أولاً، الهدف منها تحرير القدس، وتكوين بداية عصر جديد، ولذلك دعا هس يهود أوروبا الشرقية إلى التوجه للاستيطان في فلسطين؛ لنشر الحضارة الغربية، وحاول من أجل ذلك الاستعانة بفرنسا، بحكم علاقته الوثيقة بقيادتها؛ لدعم هذا المشروع، والذي استوحى فكرته من تجربة الوحدة الإيطالية<sup>14</sup>.

وأخيرًا، سار ليون بنسكر على نهج من خلفه، ويعد أيضًا أحد أهم من روج للفكر اليهودي، فقد أصدر كتابًا بعنوان التحرر الذاتي سنة ١٨٨٢، دعا فيه اليهود إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين، وتحدث فيه عن حل المشكلة اليهودية، ويعتبر من أوائل الذين ابتدعوا فكرة المسألة والمشكلة اليهودية، حيث ذكر أن المشكلة اليهودية لن تحل إلا بتحقيق مساواة اليهود كمواطنين، وهذا لن يتم دون إيجاد وطن قومي في فلسطين، ولذلك اقترح تشكيل قوة عاملة يهودية فاعلة، بالتنسيق مع القوى الأوروبية، خاصة إنجلترا؛ لأن الوطن القومي سيعود بالفائدة على الدول الاستعمارية<sup>15</sup>.

لم يقتصر الجهد الفكري اليهودي على من سبق ذكرهم أعلاه، فقد برز مفكرون قدموا أفكارًا

مشابهة، منهم صموئيل لاندوا، وبييرز سمولنسكين، وإيعازر بن يهودا، وموشي ليلينيلوم، الذين مثلوا المرحلة الثانية التي امتازت بالتخلص من الهسكلاة، ومحاربة أفكار التتوير اليهودية، والانتقال بأفكارهم إلى القومية اليهودية، وتوطين اليهود في أرض فلسطين. ومن الناحية العملية أخذ المسعى الفلسفي للتوفيق بين الدين اليهودي التقليدي والثقافة الحديثة، زمنًا طويلاً في التاريخ اليهودي، من المفكر فيلو في الإسكندرية في القرن الأول، وراف ساديا غاون في بابل في القرن العاشر، وموسى بن ميمون في إسبانيا في القرن الثاني عشر، إلى جانب عدد من المفكرين اليهود الكبار، الذين بذلوا جهداً لدمج اليهودية كما نصت عليها التوراة والتلمود مع أفضل الأفكار المعاصرة.

عكست تجربة اليهود الحياتية في أوروبا نفسها على تبلور التوجهات الفكرية والدينية لليهود، ومن ثم بلورة مواقف سياسية وقومية فيما يتعلق بمستقبل اليهود، وتوجهاتهم نحو إقامة دولة قومية خاصة. ففي عهد الرومان، كان اليهود يعدون أمة خاصة تعيش تحت الحكم المسيحي في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي قيدت حريتهم، وعاشوا في المناطق المخصصة المسماة الغيتو. وتلا تلك المرحلة، حصول اليهود على المواطنة الكاملة والمساواة القانونية بعد الثورة الفرنسية سنة ١٧٩١، وعرفت هذه المرحلة باسم التحرر، والتي تلاها ما يعرف بمرحلة التثاقف، أي قبول اليهود بثقافة جديدة أو جزء منها، دون التخلي عن تقاليدهم تمامًا، لكنه يعني توقف اليهود عن كونهم أمة منفصلة ذات ثقافة خاصة، وقد كان من المتوقع أن يفتح اليهود على المحيط، وأن يتركوا الغيتو الثقافي وأن يصبحوا مواطنين يهودًا، لكن هذا لم يحصل بالمعنى الكلي والشامل<sup>16</sup>.

لقد ارتبطت أوضاع اليهود في أوروبا بموقف المجتمعات الأوروبية منهم، ولهذا تحسنت أوضاع اليهود طردياً بعد حركة النهضة والإصلاح الديني، حيث ازدهرت حياتهم في المناطق التي عمها الإصلاح، وتحولوا إلى مواطنين بحقوق كاملة، وعملوا في التجارة البينية الأوروبية، أو بينها وبين القارات الأخرى، وشكلوا طبقة ربوية مهمة، لكن الأمر تغير مع تطور المدن الأوروبية، وظهور طبقات أوروبية منافسة بالحد الذي تراجع معه الوضع الاقتصادي والاجتماعي لليهود<sup>17</sup>، وتحولوا لجماعة شبه طفيلية، ليس لها دور وظيفي في المجتمع<sup>18</sup>. إلا أن التطورات في أوروبا، فتحت الطريق للقوميين اليهود نحو استقطاب الجمهور اليهودي لفكرة القومية، وأهمية البحث عن كيان معنوي ومادي، توج بعد ذلك بالإعلان عن قيام الحركة الصهيونية.

فقد تفاعلت الفكرة الصهيونية مع أفكار الهيمنة الاستعمارية، والسمو القومي والتفوق العنصري، التي اجتاحت أوروبا، واستلهمت من حركة النهضة والإصلاح الديني البروتستاني وحركة الكشوف الأوروبية، ما يعزز رؤيتها القومية اليهودية<sup>19</sup>، كما أنها استفادت من نجاح الحركة البروتستانتية في تحطيم ثوابت الكنيسة، ومزج الدين بالقومية وطموحات الاستقلال، وبهذا، أحيي النص التوراتي وترجم إلى لغات أوروبية، مما أسهم في تغيير النظرة لليهود تدريجياً، وأصبحت نبوءات التوراة جزءاً أساسياً من ثقافة

العصر الحديث<sup>20</sup>. وهكذا أسهم ظهور ما يعرف بمشكلة اليهود في أوروبا، في تبلور الفكر الصهيوني السياسي، مستفيداً في ذلك من تشكل القوميات والترويج لللاسامية، وبدأ معها رحلة البحث عن حل للمسألة، وإيجاد وطن قومي.

لقد عززت التوجهات الفكرية الأوروبية المتطرفة، من سرعة بروز الفكر القومي اليهودي، وسهلت مهمة المفكرين اليهود في استقطاب أغلب المجتمعات اليهودية في أوروبا، فقد شكل ما يعرف بمعاداة السامية، وما تبعها من موجات اضطهاد روسي لليهود في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وتكرار الأمر نفسه في ألمانيا، دافعاً رئيساً فاعلاً في قيام الحركة الصهيونية وتعزيز نفوذها<sup>21</sup>. وتعتبر قضية "درايفوس" الشهيرة في فرنسا سنة ١٨٥٤، من وجهة نظر الحركة الصهيونية، الحدث الأكثر تعبيراً عن السلوك اللاسامي للمجتمعات الأوروبية، وأحد أهم العوامل التي أظهرت المسألة اليهودية كظاهرة اجتماعية، ناتجة عن تحول المجتمع الأوروبي من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالي<sup>22</sup>.

تعد معاداة السامية أكثر من مجرد رأي أو موقف يتعلق باليهود، فهي تتطوي على تصورات كاملة مضادة للسامية، وتقدم توجهات أخلاقية وسياسية تحدد طريقة التفكير والتصور للعالم ككل<sup>23</sup>. وهذا يعني بالضرورة أنها توجهات لم تكن يوماً موجهة لليهود دون غيرهم، ومع ذلك ركزت القيادات اليهودية ومنظرو الحركة الصهيونية جل جهدهم على أن عدم معاداة السامية مسألة تخص اليهود دون غيرهم، وأنها تمثل توجهات عنصرية تهدد حياة اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية، ولذلك قدمت تصورات محددة لأشكال معاداة السامية، الدينية والعنصرية والاقتصادية والسياسية، وربطت ذلك كله بتدهور الرفاهية الاقتصادية، وزيادة الهجرة اليهودية، ونمو الدعم اليساري، ومنع اليهود من تولي المناصب القيادية<sup>24</sup>.

لذلك قامت الحركة الصهيونية باستغلال التطورات الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا، على الرغم من النجاحات التي حققتها الحركة اليهودية الإصلاحية، إلا أن الحركة الصهيونية استفادت من الارتدادات الاجتماعية، وحالة الإحباط التي سادت عند اليهود، بل إن منظري الحركة قبل تأسيسها، أسهموا دون إعلان في تعزيز قدرة التيارات اليهودية المناوئة وحضورها، خاصة التياران المحافظ والأرثوذكسي<sup>25</sup>، وفي هذا ما يشير إلى مستوى البراغماتية، التي ميزت قادة الحركة الصهيونية ومفكرها، والتي لم تمنعهم من التحالف مع أي قوى يهودية، يمكن معها إفشال محاولات الاندماج، وتعميق الفرز الاجتماعي، وإبراز المسألة اليهودية في صورة المشكلة.

فقد برزت المسألة اليهودية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، كمسألة متعددة الأوجه، فمن ناحية اليهود، تطورت الحاجة إلى نوع من الاستقلال عن البنية الاجتماعية السياسية للمجتمعات الغربية، والسعي إلى بناء كيان يهودي مستقل، وجاء ذلك على خلفية تصاعد اللاسامية في أوروبا، حيث التقت دعوة اللاسامية مع رغبة قيادات يهودية في بناء الكيان اليهودي الخاص، ولم تكن هذه الظاهرة خارج إطار الحراك الاجتماعي والاقتصادي<sup>26</sup>. حيث لاقت دعماً وتشجيعاً من البارون اليهودي الفرنسي

روتشيلد، ومقابل ذلك ظهرت جمعيات وشخصيات تدعو إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم، مثل دعوات شبثاي زئيفي، غير أن الغلبة في النهاية كانت وتحت وطأة تصاعد العداء لليهود في أوروبا، للجناح الذي نادى بالكيانية المستقلة لليهود خارج المجتمعات التي يعيشون فيها<sup>27</sup>.

تضمنت الدعاية الصهيونية التركيز على فكرة تضامن اليهود وتربطهم على مر العصور، وتعزو ذلك للثقافة والديانة اليهودية التي خلقت أمة يهودية، استطاعت أن تحافظ على تميزها وتربطها بالرغم من تغير المجتمعات التي يعيشون فيها. وفي هذا الإطار، تمثل الحركة الصهيونية النموذج العملي لتوظيف المسألة اليهودية، ويعد كتاب ثيودور هرتسل دولة اليهود، إنجيل الصهيونية، ويعزى إلى هرتسل نفسه الفضل في نقل الحركة من كونها مجرد حركة تبشيرية، إلى حركة ذات سياق عملي، تكفل نجاح خطواتها الأولى في عقد المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧<sup>28</sup>. ورغم ذلك كان أغلب النقد للصهيونية- كحركة تحاول إحياء الشعب اليهودي-، ينطلق من حركات وأفكار ذات طابع يساري أو أنها يسارية بشكل كامل، فقد تصدى ماركس للمسألة اليهودية، وبين أن تحرر اليهود يكون من خلال تحرر المجتمع من الرأسمالية، وأن اليهودية لم تبق رغماً عن التاريخ بل بقوة التاريخ. فيما أكمل ذلك لينين بنقده لحركة البوند، مؤكداً على ما طرحه ماركس من ضرورة اندماج اليهود في مجتمعاتهم، وأن الصهيونية ما هي إلا ثمرة التحالف بين الرأسمالية اليهودية والرأسمالية العالمية، وهي تقوم بخدمة مصالح الدول الإمبريالية<sup>29</sup>.

والى جانب حدة النقد الذي وجه للحركة الصهيونية، وكيفية توظيفها للمسألة اليهودية، فقد انحسر تداول مفهوم المسألة اليهودية في مناطق أوروبا، ولم تظهر المسألة اليهودية في الشرق، في آسيا وإفريقيا أو أميركا اللاتينية، رغم وجود عدد كبير من اليهود في هذه المناطق، وحتى في أميركا الشمالية، كاد اليهود يندمجون في المجتمع المتشكل، وبذلك كانت المسألة اليهودية مسألة أوروبية في الأساس<sup>30</sup>.

يبدو أن هرتسل قد تلمس أفضل من أي شخص آخر التهديد الوشيك للاندماج والانصهار اليهودي، وهو يوضح جوهر الأيديولوجيات الانفصالية، وهي استراتيجية بناء الغيتوهات، ولقد اتبعت الحركة الصهيونية هذه الاستراتيجية منذ أواخر القرن التاسع عشر<sup>31</sup>.

في منتصف القرن التاسع عشر تبدل ميزان القوى، لمصلحة الدول الاستعمارية الأوروبية، وضعفت الدولة العثمانية، وصار من الواجب تقسيم تركتها، وقد جذبت فلسطين بالذات اهتمام الدول المستعمرة وأطماعها؛ بسبب موقعها الهام، ولإرثها التاريخي والديني المسيحي واليهودي، وتزامن هذا التوجه مع مشكلة اليهود في أوروبا، ورفضهم الاندماج في مجتمعاتهم الأوروبية. وقد برع القادة اليهود في استغلال تلك المعطيات، وأنتجوا صيغاً محكمة للربط بين الأمرين، بالحد الذي نجحوا فيه بإقناع تلك القوى بضرورة الأخذ بعين الاعتبار مشكلة اليهود، وحقهم التاريخي في فلسطين<sup>32</sup>. وقد أسهم تفهم القادة الأوروبيين لهذا الأمر، في تسريع ظهور الحركة الصهيونية، كمثل رسمي لليهود يمكن الاتفاق معه على ملامح الصفقات الاستعمارية المستقبلية. ومع التوسع الهائل الذي شهدته الرأسمالية بعد منتصف القرن



التاسع عشر، دخلت القوى الأوروبية في صراع محموم على المستعمرات لفتح أسواق جديدة تستطيع فيها تصريف فائض إنتاجها، والحصول على المواد الخام بأسعار رخيصة، وفي هذا السياق نشأ التيار القومي اليهودي، كرد فعل لفقدان الأمان والثقة في المجتمع الأوروبي، ولكنه في الوقت نفسه كان انعكاساً للتغيرات في المجتمع الأوروبي ومماثلاً له في التوجهات، إذ نادى القوميون اليهود بضرورة فصل اليهود عن سائر أفراد المجتمع، وأكدوا على ضرورة تنظيم اليهود ذاتياً وبعيداً عن باقي التنظيمات الاجتماعية والسياسية الموجودة<sup>33</sup>.

### ثالثاً: الحركة الصهيونية

في ظل هذه التحولات، وانتشار مظاهر معاداة السامية، وتعاضم الفكر القومي والمد الاستعماري، ولدت الصهيونية. وجاء أقوى تعبير عنها على يد الصحفي اليهودي النمساوي ثيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية السياسية، ويمكن القول، إن الإعلان عن تشكيل الحركة الصهيونية، لم يكن سوى تنويع للكثير من الجهود اليهودية التي بذلها القادة والمفكرون اليهود، كما أنها عبرت عن توجهاتهم الفكرية والفلسفية، ذات البعد الديني، وليس أدل على ذلك، من استخدام الحركة لكل الشعارات الدينية، من أرض الميعاد وحتى شعب الله المختار. صحيح أن الحركة الصهيونية حاولت الترويج لكونها حركة علمانية، متساوقة في ذلك مع التوجهات القومية في أوروبا حينها، إلا أنها لم تستطع الانسلاخ عن جذورها الدينية، هذا إضافة إلى أنها وضعت الأساس المهم لإعادة تسويق الديانة اليهودية في ثوب قومي<sup>34</sup>. هذا الفهم الذي تحول إلى نموذج ثابت، أعادت استخدامه وترويجه الدولة، أي إسرائيل بعد قيامها، وما زالت تستخدمه حتى اليوم.

وهو ما عبّر عنه هرتزل في كتابه دولة اليهود بالقول "الدولة اليهودية ستكون قلعة متقدمة أمامية للحضارة الغربية في وجه بربرية الشرق"<sup>35</sup>. إن هذا النص يلخص جوهر الصهيونية ومشروعها لإنشاء الكيان الصهيوني، ومن أجل إقناع اليهود المنتشرين في كافة بقاع العالم راحت تستدعي التاريخ اليهودي التوراتي المتخيل؛ بهدف دفعهم للهجرة إلى أرض الأجداد، والمساهمة في بناء الكيان الصهيوني.

ويمثل كتاب دولة اليهود تحدياً لقيم التوراتية واليهودية، والأحلام المسيحية بعودة المسيح المخلص، كونه اعتمد على فلسفة وضعية وظفت الدين دون نصوص، لإقامة الوطن المنشود ضمن صيغة تحالف مع الدول الكبرى، وفي ذلك يقول المؤرخ الإسرائيلي يوسي سالمون: "إن المفهوم الحريدي العام للصهيونية، هو مفهوم قوة علمنة المجتمع اليهودي، الذي يتبع أسلافه أي حركة الهسكلاه، وبما أن برامجها الأكثر أهمية كانت مرتبطة بأرض إسرائيل، موضوع الآمال المسيانية التقليدية، فقد كانت أخطر بكثير من أي قوة علمنة أخرى ضد اليهودية، وكان لابد بالتالي من مهاجمتها"<sup>36</sup>.

لقد قدمت الصهيونية نفسها، كحل شامل وثنوي للمسألة اليهودية أينما وجدت، وضمن الظروف الدولية التي أحاطت بنشأتها، استدعت المفاهيم والمقولات التوراتية؛ لصياغة خطابها الموجه لليهود،

ودعوتهم للعودة إلى الوطن المنشود، ولهذا يراها بعض المنتقدين المتدينين على أنها تمثل إنكاراً للتقليد اليهودي، وشكلت ومازالت التهديد الأكبر، لأنها قصدت سلب الجماعة التقليدية كل تراثها في الشتات، كما في أرض إسرائيل، وأنها تنتزع منها انتظاراتها المسيانية<sup>37</sup>. فرغم أن الصهيونية السياسية سخرت الكثير من الادعاءات الدينية، والأساطير التاريخية المشتقة من التقليد والتراث اليهودي، في سبيل بث الحماية الدينية والتأثير على عامة اليهود، إلا أن مناهضتها عدواً أيديولوجيتها وممارساتها خطراً على الأسس اليهودية، وأنها مفهوم غريب عن التقليد اليهودي. لقد أدرك الزعماء الدينيون اليهود منذ ظهور الصهيونية، أنها حركة قومية علمانية؛ لذلك تصدى أغلبهم للفكرة، ليس بسبب طابعها العلماني فقط، ولكن لإيمانهم أن بناء مملكة إسرائيل لا بد أن يتم على يد المسيح المنتظر<sup>38</sup>. وتدعم نصوص التوراة وجهة نظر اليهود المتدينين في معارضة الصهيونية السياسية؛ لأن الخلاص وفق التقليد اليهودي لا يتم بطرق بشرية، وإنما بمساعدة إلهية وعودة المسيح المنتظر. وفي ذلك، ينص سفر يشوع: "سوف أخلصهم بقوة رب الخلود إليهم، ولن أنقذهم بالقوس، ولا بالسيف ولا بالحروب ولا بالخيل ولا بالفرسان"<sup>39</sup>، ومن وصايا التوراة "لا تحاول أن تستعجل نهاية الأيام، ولا تثر على الشعوب التي تحكمك"<sup>40</sup>.

إن البحث في الكيانية اليهودية، يثير تساؤلات حول كون اليهود شعباً أو أمة في أي حقبة من التاريخ، فباستثناء الاعتقاد الديني وبعض الطقوس، يصعب الاستدلال على مكونات الثقافة الإثنوجرافية لليهود<sup>41</sup>، وإذا ما كانوا جماعة قومية أو دينية في المجتمعات التي عاشوا فيها، وإذا ما شكل الدين وحدة الشعب اليهودي في غياب المتغيرات الأخرى، وهل سيطرت حالة الغيتو عليهم منذ النشأة وحتى قيام الدولة؟، أو أنهم عاشوا كمواطنين ضمن قوميات مختلفة في دول مختلفة. تبدو هذه التساؤلات مشروعة، لكون الديانة اليهودية مختلفة عن غيرها من الديانات، ففي حين تسعى الديانات إلى نشر مبادئها وأفكارها، تتأى اليهودية بنفسها عن هذا السعي، وتضع طبيعتها المغلقة شروطاً صعبة لتحديد من هو اليهودي، ولا تسعى لكسب متدينين جدد من غير اليهود، الذين تصفهم بالجنس والعرق المتميز، وفق نصوص التوراة<sup>42</sup>.

وقد تبنت الحركة الصهيونية المزاعم التوراتية بما فيها دولة إسرائيل الأسطورية والمنخيلة وأرض الميعاد بوصفها الوطن القومي القديم لليهود، كما وبينت الحروب والمعارك الأسطورية المستوحاة من التوراة<sup>43</sup>. وبهذا تكون الحركة الصهيونية قد نجحت إلى حد كبير في منع التوجهات الدينية من إفشال برامجها، وهذا ما بدا جلياً في تمكنها من السيطرة على الكل اليهودي، صحيح أن التناقض والصراع ظلاً قائمين بين المتدينين والصهيونيين السياسيين حول فكرة الدولة وعودة اليهود، وأنه استمر إلى ما بعد قيام إسرائيل، إلا أنه لم يحل دون تحقيق الرؤى الصهيونية، وتمكن الحركة الصهيونية التي قادها قطاعات مختلفة من اليهود المتدينين والاندماحيين واليساريين من تحقيق أهدافها، وأن تصل إلى غاياتها في بناء الوطن القومي اليهودي الصهيوني، بإقامة إسرائيل على أرض فلسطين<sup>44</sup>.

لاقتف الأسطورة الدينية عند حدود سفر التكوين، بل تتعداه إلى الترابط جذرياً مع المنظومة الفكرية الأوروبية، تلك التي يجد فيها نورمان فنكلستين تشابهاً بين الخطاب الاستعماري الأمريكي والخطاب الاستعماري الصهيوني في كلمات تيودور روزفلت الذي قال: "إن انتشار الإنكليز في العالم هو أحد السمات الصاعقة لتاريخ العالم أن الأرض لم تكن مملوكة لأحد، والمستوطنون، حقاً لم يطردوا أحدًا فالهنود لم يملكوها في يوم من الأيام أي ارتباط بالأرض"، ويضيف فنكلستين أنه ليس من الصعب بمكان العثور على التشابه بين هذه الرواية للتاريخ ولتاريخ الاستعمار الإنكليزي على وجه الخصوص، وبين الخطاب الاستعماري الصهيوني الذي بنى دعائمه النظرية الأولية على فكرة "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب"<sup>45</sup>.

ويكتب المؤرخ جابرييل بتيريرجة عن الاستعمار الصهيوني ثلاثة أساطير مؤسدة للرواية الصهيونية والاستعمار الصهيوني في فلسطين وهي، نفي المنفى، والعودة إلى أرض إسرائيل، والعودة إلى التاريخ. وعبر هذه الأساطير، تتداخل الرواية التوراتية مع الأسطورة القومية ومبادئ الفكر الأوروبي الحديث، كما في حالة الرواية الاستعمارية الأمريكية، تؤسس أسطورة نفي المنفى لحقيقة تاريخية أساسية بالنسبة للحركة الصهيونية، وهي أن اليهود كانوا أمة ذات إقليم محدد، حيث أنهم كانوا أمة لأرض، لإقليم محدد، فهم منذ غادروا الأرض، في وضع غير طبيعي وغير مكتمل وغير مثالي<sup>46</sup>.

ومن أجل أن يحقق المفكرون الصهاينة مشروعهم، طالبوا بالأرض التوراتية واستحضروها، أو بالأحرى اخترعوا مهذاً لحركتهم القومية الجديدة. وبحسب رؤيتهم، أصبحت فلسطين بلدًا يحتله غرباء ويجب استرداده منهم. ووفقاً لهذه التصورات شرعت الحركة الصهيونية بالتخطيط للاستيلاء على أرض فلسطين، بعد طرد أهلها أو إبادتهم وإحلال الجماعات الاستيطانية مكانهم، وقد تبنت بريطانيا المشروع الصهيوني من خلال وعد بلفور، وفتح أبواب الهجرة على مصراعيها أمام اليهود من شتى بقاع العالم إلى فلسطين بعد احتلالها من قبل الإنجليز سنة 1917، وبعد أن قويت شوكة المهاجرين اليهود أخذوا يخططون لعملية طرد الفلسطينيين من أراضيهم<sup>47</sup>.

لقد ميز الباحثون بين اليهودية الدينية، والصهيونية القومية، فالأولى مرتبطة بالجانب الروحي اللاهوتي، حيث يؤكد أحد أقطابها وهو حايم وايزمان، أن الدين والشعور الديني هو مصدر الحركة الصهيونية المبني على أقدم الذكريات التي نشأت فيها الحياة اليهودية الأولى التي مارست فيها حريتها<sup>48</sup>. وهذا تأكيد على مدى تطابق أهداف الصهيونية الدينية والصهيونية القومية، واتفاقهما على ما جاء في التوراة "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر النهر الكبير نهر الفرات"<sup>49</sup>. إن كل المحاولات لإضفاء الطابع العلماني، الدنيوي على حركتهم ودولتهم، كانت تكتيكية - ظرفية، ارتبطت بمرحلتها التاريخية في حينها؛ لأنها ظاهرة طارئة وعارضة في حياتهم المدنية والسياسية<sup>50</sup>. وأن الأصولية اليهودية ستكون حلاً وسطاً وتوفيقياً بين الدين والعلمانية؛ لأنها تتكون من مجموعة القوى السياسية اليهودية، التي انطلقت من

نزعة توفيقية بين الدين اليهودي والصهيونية العلمانية، وأضفت عليها قيمة دينية، باحتسابها بداية الإخلاص المسيحاني<sup>51</sup>. إن الحركة الصهيونية حركة دينية سياسية، لها مصدران أساسيان يدلان عليها، وهما: الأول، الوعد الإلهي بالعودة في التوراة، وبروتوكولات وضعها حكماء اليهود، وقد مزجت الحركة الصهيونية بين الدين والسياسة، واتخذت الدين ركيزة تقوم عليه السياسة. وثانيها، القدس في التصور اللاهوتي اليهودي<sup>52</sup>.

#### رابعاً: الأيديولوجيا الصهيونية والدعم الأمريكي المتواصل لها

تتكون الأيديولوجيا من عنصرين، أولهما نظري، والثاني عملي، فمن الناحية النظرية تتألف الأيديولوجيا من نظام من الأفكار والقناعات التي تتناول الإنسان، ومركزه في المجتمع، وموقفه من هذا المجتمع، ومن الناحية العملية تحمل الأيديولوجيا أنصارها على انتهاج سلوك يعملون من خلاله لتحقيق تلك القناعات<sup>53</sup>.

الأساس الأول للأيديولوجيا التي تبنتها الحركة الصهيونية، هي الأرض الموعودة وأرض الميعاد التي وعد بها الرب يهوى قبائل بني إسرائيل بالاستحواذ على أرض كنعان. أما الأساس الثاني لهذه الأيديولوجيا، هي صفة الشعب المختار اليهودي باعتبارهم شعب مقدس. وسنجد هذه النصوص التوراتية التي تضيء قداسة على الجماعة اليهودية وحدها دون بقية الشعوب، أنا الرب الذي يقدسكم وأيضاً أنا الرب أقدسكم، وأنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب، وتكونون لي قديسين وأنتم تكونون لي شعباً، وأنتم فوق جميع الشعوب، ولأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك<sup>54</sup>. وحسب هذا الفهم، فإن القداسة تقتضي الاختيار بمعنى أن إسرائيل مقدسة، ولهذا فقد اختارها الإله لتكون شعباً مختاراً لهم. وفيما أن اليهود شعباً مقدساً، فإن ذلك يقتضي أن يكون بقية الشعوب ملعونة "لعنة كنعان"، وقد كرست النصوص التوراتية حيزاً من صب اللعنة والكرهية على الشعب الكنعاني. أما سبب هذه اللعنة فيعود إلى أسباب ساذجة وخرافية، حيث تروي النصوص التوراتية الحادثة التي وقعت في سفينة نوح أثناء الطوفان<sup>55</sup>.

أما الأساس الرابع، فيتناول رب الجنود والدعوة لإبادة الشعوب، فالنصوص التوراتية تغص بالروايات المرعبة من الحروب والإبادة الجماعية التي شنّها الشعب المختار بتوجيهات من الإله يهوى يجري وصفه بأنه رب الجنود "الرب هو رب الحرب"، وهكذا يتوج سفر الخروج الرب بوصفه إلهاً للحرب يرعى قبائل بني إسرائيل ومحارباً نيابةً عنهم، محرضاً هذه القبائل على الحرب، والإله يهوى "يسمع الشعوب فيرتعدون تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حينئذ يندهب أمراء أدوم، المكان الذي صنعه يا رب لسكنك المقدس الذي هيأته يدك يا رب"<sup>56</sup>.

ثم يواصل إله الحرب التوراتي حثه على الحرب "فإني أطرده الأمم من قدامك وأوسع تخومك، ولا يشتهي أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب إلهك ثلاث مرات في السنة"<sup>57</sup>، ثم يبدأ بتهيئة الأجداد لخوض الحرب "إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون سكان الأرض من أمامكم، وتمحون كل

تصاويرهم، وتبعدون أصنامهم المسبوكة، وتخربون كل مرتفعاتهم وتملكون الأرض وتسكنون فيها، لأنني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها وتقنتمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم، ومناخس في جوانبكم وبضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها". إذن هي دعوة للإبادة والتطهير العرقي الشامل (وتطردون أعدائكم فيسقطون أمامكم). "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما" وبيدهم وبذلهم أمامك وتطردهم سريعاً<sup>58</sup>.

وبعد الإبادة الشاملة، يدعوهم الرب إلى نشر أي ثأر "وتمحون اسمهم من ذلك المكان"، ومن ثم يدعوهم لعدم السماح لهم بالسكن في الأرض الموعودة "لا يسكنون في أرضك لأنهم يجعلوك تخطئ"<sup>59</sup>. وهكذا إذن توجيهات رب الجنود لتهيئة شعب الله المختار للاستيلاء على الأرض بعد إبادتهم لها، ومحو ماضيهم من المكان، وهذه هي النصوص التي هيأت إلى إشاعة الإبادة الأسطورية التي يرويها سفر يشوع.

أما الأساس الخامس لهذه الأيديولوجيا فيتمثل بسفر يشوع التوراتي، وهو يروي المذابح والإبادة الأسطورية التي ارتكبتها جنود يشوع ضد المدن الكنعانية بمباركة وتحريض رب الجنود التوراتي والتعصب لشعبه، ويروي هذا السفر بداية حصار مدينة أريحا الكنعانية ومن ثم اقتحامها وإبادة بشرها "وحرمو كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف"، ولكن رب الجنود لم يكتف بهذه المذبحة، بل راح يحرض يشوع على شن المزيد من حروب الإبادة، "لا تخف ولا ترتعب خذ معك جميع رجال الحرب، وَقُمْ اصْعَدْ إِلَى عَايَ"، وهي إحدى المدن الكنعانية حسبما يروج سفر يشوع، "وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت، وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا، إن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف"<sup>60</sup>

ويواصل السفر سرد عشرات المذابح المرتكبة بحق المدن والبلدات الكنعانية، أما بقية أسفار التوراة ففتغزل على ذات المنوال باستحضار هذه المذابح والتحريض الدائم من جانب رب الجنود بارتكاب المزيد منها. هذه هي الأسس الخمسة للأيديولوجيا التوراتية، وهذا هو الإطار الفكري الذي تمثله الحركة الصهيونية وهي تنشئ دولتها الأسطورية المتخيلة في نصوص التوراة.

يحاول العديد من المفكرين الصهاينة تكييف الفكر الصهيوني مع الواقع ومتغيرات العصر، وهذه المحاولات تعكس أزمة هذا الفكر في قدرته على وصف إسرائيل على أنها دولة ديمقراطية وعلمانية ومدنية، فيما تتغاضى هذه المحاولات عن ماضي وحاضر هذه الدولة الاستعمارية الاستيطانية، وممارساتها وتصويرها كما وأنها نمت نموًا طبيعيًا، والمطلوب هو ربط حلقاتها المنقطعة، والانطلاق من حاضرها مع إسدال أيّة مُمَارَسَات في الماضي الصهيوني القريب، التي من شأنها أن تُشكّل عائقًا أمام

هذه المحاولات. وفي تعريف إسرائيل لذاتها، فهي دولة ديمقراطية علمانية مُتقدّمة تنتمي إلى العالم الحر، وتواجه على الدوام عدواً عربياً أو فلسطينياً يُهدد وجودها في المنطقة، وهو ما يُعيق من فرص تطورها وتحويلها إلى دولة ديمقراطية مدنية مزدهرة<sup>61</sup>.

إلا أن هذا التعريف يُعاني من قصور، وهو أقرب للدعاية الإعلامية أكثر منه تعريفاً سياسياً وفكرياً لهذه الدولة، فهي تنتمي إلى نمط الدولة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية، التي تسعى إلى حسم صراعها مع السكان الأصليين أي الفلسطينيين، وتستخدم في سبيل هذه الغاية كافة الوسائل بما فيها الوسائل الهمجية لإقصائهم عن الوجود، وفي هذه الحالة فإنها تسعى للانتقال مباشرة من الحالة البربرية إلى الحالة الديمقراطية. وما يُميز إسرائيل عن بقية التجارب الاستعمارية الاستيطانية الأخرى، هو أنها لم تحسم صراعها بعد مع السكان الأصليين، ومع ذلك فإنها تتشبث بديمقراطيتها المُميّزة والفريدة<sup>62</sup>.

فالولايات المتحدة وكندا وأستراليا هي نماذج لدول استعمارية استيطانية، لكنها لم تُعلن عن نفسها بأنها دولاً ديمقراطية، إلا بعد أن قامت في إبادة السكان الأصليين، وتعتبر هذه الدول اليوم في مقدمة الدول في الدفاع عن حقوق الإنسان<sup>63</sup>.

أما إسرائيل ولأسباب تحتاج إلى بحث، باتت تكثر من هذه الاستخدامات الخطابية، وتحاول دوائرها الأكاديمية والثقافية والسياسية جسر الهوة السحيقة بين الشعارات التي ترفعها والتي تتنافى تماماً مع الواقع، وبين ممارساتها الإجرامية بوصفها كياناً استيطانياً استعماريًا، ومواصلة الادعاء أنها دولة ديمقراطية تعاني من بعض الإشكاليات ذات الطابع الوجودي، وأنه سيكون بوسعها أن تتخلص من ماضيها الاستعماري العدواني والوظيفي، وتغدو أكثر استقلالاً وديمقراطيةً وليبرالية<sup>64</sup>.

ويقول ستيفن سايزر في دراسته عن الصهيونية المسيحية خارطة الطريق إلى موقع هارمجدون<sup>65</sup>؟ أن أمريكا هي المنقذ الأكبر، أمريكا وإسرائيل توأمان، لارتبطهما المصالح المشتركة فقط بل الأسس الدينية عينها. فالأنجليكان<sup>66</sup> يجدون في الدفاع عن إسرائيل واجباً دينياً في الطريق الطويل إلى المعركة النهائية، حيث يفصل بين الشر والخير<sup>67</sup>.

لا يقتصر الحديث عن الصراع الشرق الأوسطي، وخلفياته وإمكانيات حلوله في الولايات المتحدة على الجانب السياسي فحسب. فالكنيسة الأنجليكانية ترى في الصراع الحالي بداية نهاية العالم، كما يجد أعضاؤها في مساندهم لإسرائيل تعجلاً بالنهاية، كما تم التنبؤ بها في الإنجيل. وعليه تؤكد مارجريت ستراتون راعية كنيسة روبنسون درايف "ما يحدث الآن في إسرائيل والدول المجاورة لها تم التنبؤ به في الكتاب المقدس". فالكنيسة الإنجليكانية المحافظة تؤمن بأنه قبل الوصول إلى السلام، يجب أن تقوم حرب دامية مدمرة. وبالنسبة لملايين الأمريكيين (تقريباً ربع الشعب الأمريكي)، بدأت المعركة الأخيرة، معركة هارمجدون حيث يتقابل الخير مع الشر في إسرائيل وينتصر الخير، ويقضى على كل من هو غير مسيحي، حينئذ سيعود المسيح إلى أورشليم ليحقق السلام في العالم، ويعتقد الأنجليكان أنه منذ تأسيس

دولة إسرائيل، بدأت نهاية العالم كما ذكرها الكتاب المقدس في التحقق حرفياً<sup>68</sup>. تناول المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه "حالة التطهير العرقي في فلسطين، كسياسة محددة تهدف مخططاتها إلى إزالة لمجموعة أخرى من أرض معينة، على أساس ديني، أو عرقي، أو قومي، وتتضمن هذه السياسة العنف، ويتم تنفيذ هذا بكل الوسائل الممكنة، من التمييز إلى الإبادة"<sup>69</sup>. ويؤكد بابيه أن ما جرى في فلسطين، هو عملية تطهير عرقي كخيار شرعي بالفكر الصهيوني، منذ هيرتزل، وصولاً لبن غورين، وقد نجحت إسرائيل في عملية التطهير للمجتمع الفلسطيني، من سكانه في مراحل عدة، لم تبدأ بالنكبة، فقد ناقشت الحركة الصهيونية مع الغرب، خاصة بريطانيا وأمريكا، قضية ترحيل الفلسطينيين ما قبل النكبة، وقد أكدت الوقائع أن هذه الدول كان لها دور في عملية التطهير والتطهير التي تعرض لها الشعب الفلسطيني<sup>70</sup>.

وهذه العملية لم تكن لتنجح لولا ذلك الدعم السياسي، والمساعدة الكبيرة من قبل الغرب المساهم بدرجة أو بأخرى بالمسؤولية عما حدث للشعب الفلسطيني. ولا يمكن إعفاء الأمم المتحدة من دورها المشارك بإدارة التوزيع والتقسيم، بل ومنح أرض فلسطين كحق للفلسطينيين بالقانون الدولي الذي أقرته لمن لا يملك الحق<sup>71</sup>.

أثناء قمة كامب دايفيد الثانية التي عقدت في سنة 2000 تحت رعاية الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون، وحضور الرئيس الفلسطيني الشهيد ياسر عرفات، ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إيهود باراك، التي فشلت ليس بسبب الموقف الفلسطيني المتعنت كما تزعم سلطات الاحتلال، وإنما بسبب اللاءات الإسرائيلية بشأن اللاجئين والقدس وإزالة المستوطنات. حيث عرضت إسرائيل تنازلات رمزية تختزل قضية حق العودة في إطار جمع شمل العائلات ضمن شروطها ومعاييرها، وتوطين اللاجئين في أماكن وجودهم، وإضافة بند إلى الاتفاق يفيد بوضع حد للصراع من شأنه أن يحررها من كل مطلب مستقبلي بشأن تلك القضية، وهو ما يعني دفن أي مسؤولية لها عن اللاجئين<sup>72</sup>. كما تواتر الموقف الإسرائيلي مع خطة خريطة الطريق سنة 2003، بإيراد 14 تحفظاً بشأن رفض حق العودة وتقسيم القدس وإزالة المستوطنات.

كما تكرر مع رفض المبادرة العربية للسلام، التي أقرت في بيروت سنة 2002، ووضع شرط الاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية أمام المؤتمر الدولي حول السلام في الشرق الأوسط في أنابوليس تحت الرعاية الأمريكية في تشرين الثاني/نوفمبر 2007<sup>73</sup>. وقد تبنت الولايات المتحدة المطلب لتبديد مخاوف الاحتلال، فجاء في كلمة الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن في مؤتمر العقبة سنة 2003، أن أميركا ملتزمة بقوة بأمن إسرائيل كدولة يهودية<sup>74</sup>.

#### خاتمة:

حاولنا في هذه الدراسة أن نسلط الضوء على أهمية الأيديولوجيا الصهيونية في بناء دولة إسرائيل، حيث ظهرت الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر بهدف إيجاد حل للمشكلة اليهودية المتفاقمة في

أوروبا، وذلك من خلال مشروع الكيان الصهيوني كجزء من المنظومة الاستعمارية العالمية، وتحويل هذه الدولة إلى دولة وظيفية تقوم على حماية المصالح الاستعمارية في المنطقة، وهو ما عبّر عنه ثيودور هرتسل بالقول "الكيان الصهيوني سيكون قلعة متقدمة أمامية للحضارة الغربية في وجه بربرية الشرق"، إن هذا النص يلخص جوهر الصهيونية ومشروعها لإنشاء الكيان الصهيوني. ومن أجل إقناع اليهود المنتشرين في كافة بقاع العالم، راحت تستدعي التاريخ اليهودي التوراتي المتخيل؛ بهدف دفعهم للهجرة إلى أرض الأجداد والمساهمة في بناء الكيان الصهيوني، ويعتبر هرتسل هو صاحب الفضل في نقل الحركة من كونها مجرد حركة تبشيرية إلى حركة ذات سياق عملي، حيث تضمنت مشاريع الحركة الصهيونية برامج لتجميع اليهود في فلسطين، ومضت إسرائيل في هذه البرامج، وإقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين.



## الهوامش:

1 -Thomas Hawk, Sharing the Light: Judaism, Pluralism Project, Harvard University, Religious Literacy Project, San Francisco, Harvard Divinity School, 2015, p 15  
2-ibid, pp 4-6.

3-الإصحاح الخامس عشر، الآية ١٨، سفر التكوين.

44-الإصحاح العاشر، الآيات 1-7، 5-15، 8-16، سفر التثنية.

5- عبد المجيد همو، الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات، دمشق، دار الأوتل للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨، ص ٩٧.

6- أحمد إبيش، التلمود كتاب اليهود المقدس: تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه، دار قبية، دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص ٢٧.

7- سيرغي توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة: أحمد فاضل، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٨، صص ٣٩٠. ٣٩٢.

8- سيد راشد، دراسات في الصهيونية وجذورها، دار المريخ للنشر، الرياض، ط١، ١٩٩٢، ص ٥٧.

9- رشاد الشامي، القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ط١، ١٩٩٧، ص ٨٦.

10- المصدر نفسه، ص ٨٧.

11- أسعد زروق، التلمود والصهيونية، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩١، ص ٢٠٣.

12- عبد الفتاح ماضي، الدين والسياسة في إسرائيل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص ٢٢٩.

13- رشاد الشامي، المصدر نفسه، ص ٨٩.

14 -Arye Edrei, From Orthodoxy to Religious Zionism: Rabbi Kook and the Sabbatical Year Polemic, A preliminary version of this article was presented at the Benjamin N. Cardozo School of Law, Yeshiva University, as the 2008 Annual Ivan Meyer Lecture in Jewish Law, pp 54-56

15- سيد راشد، المصدر نفسه، ص ٧٣.

16 -Monika Richarz, The History of the Jews in Europe during the Nineteenth and Early Twentieth Centuries, a Briefing for Global Network of United Nations Information Centers, Hamburg, Institute for German-Jewish History, 2008, pp 77-80.

17- عبد الفتاح ماضي، المصدر نفسه، ص ٩٤.

18-أبراهام ليئون، المفهوم المادي للمسألة اليهودية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، 1973، ص ٢٤.

19- أحمد الدجاني، الصهيونية: الموسوعة الفلسطينية العربية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط١، م٢، ١٩٨٤، ص ٨١١.

20- بشير نافع، الإمبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص ٣٩.

21- بيان الحوت، فلسطين القضية الشعب الحضارة: التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين،

- دار الاستقلال للنشر والدراسات، بيروت، ط1، 1991، ص 282.
- 22- عبد الوهاب المسيري، الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1990، ص 19.
- 23 -Jean-Paul Sartre, Anti-Semitism and Jew, Edition 4, Translated by: George Becker, New York, SchockenBooks, 1995, p 23
- 24- William Brustein and Ryan King, Anti-Semitism in Europe Before the Holocaust, International Political Science Review, Vol 25, No 1, London, International Political Science Association and SAGE Publications, 2004, pp 47-48.
- 25- بيان الحوت، المصدر نفسه، ص 283.
- 26 -Bruno Bauer, On The Jewish Question (1844), First Edition, Copenhagen, Proofed by: Andy Blunden, Matthew Grant and Matthew Carmody, Deutsch Franzosische Jahrbucher, 2010, pp 56-71
- 27 -Abram Leon, The Jewish Question: a Marxist Interpretation, Ninth Edition, London, Pathfinder Press, 2001, p 163
- 28-إسرائيل شاحك ونورتن فيرفينسكي، ترجمة: إسماعيل الفقعاوي، الأصولية اليهودية في إسرائيل، منشورات مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، رام الله، ط1، 2003، ص 24.
- 29-Abram Leon, The Jewish Question: a Marxist Interpretation, p 178
- 30- إسرائيل شاحك، المصدر نفسه، ص 74.
- 31- جلعاد عتسمون، من التائه؟ دراسة في سياسة الهوية اليهودية، ترجمة: حزامه حبايب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2012، صص69-70.
- 32- Virgilio Rivas, On the Jewish Question: a Polemical Précis, Critique Journal, Vol 9, No 2, London, Institute for Cultural Studies, 2015, pp 95-76
- 33- Harry Magdoff and Others, Western colonialism: European Expansion Since 1763, published in <https://www.britannica.com/topic/Western-colonialism>.
- 34- Edward Rettig, Jewish Question in Europe Redux, Analytical Vision Adar 5774, Ber Shevai, the Argov Center for the study of Israel and the Jewish People, Bar Ilan University, 2014, pp 33-34
- 35- جورج كنعان، خطبة الفلسطينيين، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2007، ص57.
- 36- ياكوف رابكن، المناهضة اليهودية للصهيونية، ترجمة: رعد قناب، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص 49.
- 37- المصدر نفسه، ص 37.
- 38- رشاد الشامي، المصدر نفسه، ص 126.
- 39- سفر يوشع، الاصحاح الأول، الآيات 8.7.
- 40- عبد الله أبو علم، قالوا من فمك أدينك يا إسرائيل، ط1، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص 176.
- 41- شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة: سعيد عياش، ط1، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله، 2010، ص 43.

- 42- سيرغي توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة: أحمد فاضل، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998، ص 284.
- 43- جورج كنعان، خطيئة الفلسطينيين، مصدر سبق ذكره، ص23.
- 44- رجاء عرابي، سفر التاريخ اليهودي، دراسة نقدية موضوعية، ط1، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2009، ص 565.
- 45 Norman Finkelstein, "History's Verdict: The Cherokee Case," Journal of Palestine Studies, Vol 4, No 4 (Summer 1995) pp. 32-45 .
- 46 Theodor Herzl, The Jewish State: An attempt at a modern solution of the Jewish Question, (London: Pordes 1967), 13 – 15
- 47 - ايلان بابيه، المصدر نفسه، صص19، 36.
- 48- روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة حياة الحوبتيك، مطابع جريدة الدستور، عمان، ط1، 1997، ص17.
- 49- سفر التكوين، الإصحاح، صص5، 18-21.
- 50- عبد العزيز مصطفى كامل، حمى سنة 2000، دار السيم للنش، الرياض، ط1، 1999، ص24.
- 51- نديم عيسى خلف، الأصولية والتسوية، مجلة صلاح الدين الأيوبي لدراسات القدس، جامعة الكويت، العدد 1، 2000، صص1-3.
- 52- ريتشارد.ل. روبنشتين، تأملات في الدين والسياسة، ترجمة مصطفى المختار، الفكر العلمي المعاصر، العدد 56-57، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1982، ص102.
- 53- ياكوب باريون، ترجمة أسعد رزوق، ما هي الأيديولوجية؟: دراسة لمفهوم الأيديولوجية ومعضلاتها، بيروت: الدار العلمية، ط1، 1971، ص 110.
- 54- سفر التثنية، الإصحاح، نفس المصدر، 7،10،20،26،31.
- 55- سفر التكوين، الإصحاح 9، نفس المصدر.
- 56- الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح 15.
- 57- سفر الخروج، الإصحاح 34، نفس المصدر.
- 58- سفر التسوية، الإصحاح 9،20،26،33، نفس المصدر.
- 59- سفر الخروج، الإصحاح 12،23، نفس المصدر.
- 60- الكتاب المقدس - العهد القديم، سفر يشوع، الإصحاح 8، 26.
- 61 - موقع جمعية التجديد الثقافية والاجتماعي، ملخص كتاب (مَسْخُ الصُّورَةِ ... سَرِقَةُ وَتَحْرِيفُ تَرَاثِ الْأُمَّةِ)، 2 تشرين الأول/أكتوبر 2014، <https://tajdeed.org>
- 62- المصدر نفسه.
- 63- المصدر نفسه.
- 64- المصدر نفسه.

65- هار ماجدون، كلمة عبرية مؤلفة من كلمتين، هار بمعنى تل، ومجدو إسم مدينة في شمال فلسطين المحتلة ويطلق عليها مجيدو، وقد ورد في التلمود أنّ اليهود وقبل انتصارهم الكامل والنهائي، لا بدّ من قيام حربٍ بين الأمم يهلك خلالها ثلثا العالم، ويبقون سبع سنين يُحرقون الأسلحة التي اكتسبوها بعد النصر، وقد تناول سفر الرؤيا هذه المعركة التاريخية والنهائية، لمزيد من المعلومات أنظر: يحيى أبو زكريا، قضية هرمجدون، 26 تشرين أول/أكتوبر 2017، <https://www.almayadeen.net/episodes/833030>

66- ترجع جذور الانجليكانية إلى أحد الفروع الرئيسية للبروتستانتية التي نشأت من الإصلاح. السبب الأساس لتأييدهم للكيان الصهيوني هو أنهم خلافاً للمجموعات المسيحية الأخرى يرفضون الفكرة التي تفيد بأن الله قد تخلى عن شعب إسرائيل بسبب رفض هذا الشعب الاعتراف بيسوع. هم يحترمون اليهودية باعتبارها أساساً للمسيحية، ويعتقدون أن اليهود سيقفون شعب الله المختار إلى الأبد، لمزيد من المعلومات أنظر: يزي ليلير، الانجليكان ذخر ثمين لإسرائيل، 19 آب/أغسطس 2008،

[https://www.al-ayyam.ps/ar\\_page.php?id=6c64f44y113659716Y6c64f44](https://www.al-ayyam.ps/ar_page.php?id=6c64f44y113659716Y6c64f44)

67- دويتشه فيله وسمر كرم، صراع الشرق الأوسط والطريق إلى "هرمجدون"، 8 آب/أغسطس 2006، <https://www.dw.com/ara-2124569>

68- المصدر نفسه.

69- إيلان بابيه "حالة التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 2007، صص 61-62.

70- إبتسام إسكافي، الهوية الوطنية في ظل العولمة، فلسطين، "، ط1، 2015، ص147.

71- المصدر نفسه، ص151.

72- جرية هآرتس الإسرائيلية، 11-3-2000.

73- جريدة الغد الاردنية، 30-11-2007.

74- جريدة الحياة الجديدة الفلسطينية، 5-6-2003.